

الكنيسة الشرقية

إنه لمن دواعي الاعتبار وآيات التوفيق أن تتشعب الحركة الثقافية في الشرق الأدنى فتتناول كل يوم ناحية جديدة من الفكر الانساني . ولما كان للأبحاث التاريخية القيدح المعلى فيما يتوفر عليه قادة الرأى من مواضع النظر رأينا الإدلاء بكلمة عن الكنيسة الشرقية وتطورها على مر الأجيال .

تقول الكنيسة الشرقية ، وسرعان ما يدفعنا الحرص على نفي اللبس أن نعرفها بأنها ليست مقصورة على كنيسة معينة من حيث العقائد والطقوس والمذاهب والادارة إلى غير ذلك من شتى العناصر الجوهرية أو الثانوية ، بل هى الكنيسة الشرقية فى أعم معانيها ، أى مجموعة الكنائس المسيحية التى نشأت فى حوض البحر المتوسط الشرقى ، فنمت وشبت على سواحلها ثم امتدت إلى العراق وفارس والحبشة ثم إلى أوروبا الشرقية وحتى إلى الهند والصين . تلك الكنائس التى بقيت ، مع اختلافها فى بعض المناحي المذهبية أو مناط الإمامة الروحية ، متحدة اتحاداً تاماً فيما يتصل بنواة العقائد المسيحية

من خصائص البحث العلمى فى القرن التاسع عشر الرجوع إلى المصادر التاريخية والعناية بدرس التيارات المذهبية فى نشأتها . ولا غرو أن الوقوف على العوامل الأولى التى تأثر بها مذهب من المذاهب الروحية وطبيعة البيئة الاجتماعية التى أسلست له قيادها ثم وسمته بعقليتها خيرُ معوان على تميز عناصره الفعالة وتحديد علاقته بما تقدمه من المذاهب التى تفرع عليها . فى رأى « تين » أن المبقرى وليد جنسه وبيئته وزمانه ليس إلا . ويزعم هيجل أن تاريخ الفكر سلسلة متصلة لتفاعل مذهبين متناقضين يأتلفان فى مذهب جامع الأضداد . وجليّ أننا مع نبذنا ما يطبع هذه الآراء من الجبرية المتطرفة يحق علينا درس الكنيسة الشرقية فى نشأتها لنستوعب بعض خصائصها الحاضرة . وقد جلت أبحاث ليف

من المؤرخين مثل دوشين Duchesne وهرنك Harnack وباتيفول Batiffol وفستجيير Festugière ما تميزت به هذه النشأة ؛ ونورده ملخصاً فيما يلي :

أولاً أن المسيحية — أو بالأحرى المسيحية المطلقة — قد نشأت في القدس (الجليل واليهودية) . تلك ملاحظة بليغة المعنى على سداختها ، فهي تنبئ عن ارتباط المسيحية بعقائد العهد القديم . فلا ننسى أن تعليم المسيح جاء مكملاً لتعليم موسى وسائر الأنبياء ، وأن العهد الجديد ليس في نظر المسيحيين إلا اكتمالاً لتطور العهد القديم أو تحقيقاً لأمانيه على صورة واقعية عملية لا مجرد مثالية . كانت هناك الكتب المنزلة ، كانت النبوءات المدونة ، كانت الصلوات القائمة والطقوس الصارمة . وعاش المسيح طوال السنين في ذلك العهد يدين بدينه ويلتزم كل فريضة من فرائضه . فالكنيسة الشرقية منذ نشأتها مشبعة بهذه الروح الشرقية التي طبعت العهد القديم بطابعها الخاص . ولا تبرح ذاكرة سلالتها معتزة بشرف نسبها .

غير أن هذا النور الذي انبج في الشرق قد فاض على عالم ساد نظام روما فترعرت الكنيسة الشرقية في محيط روماني . سيطرت الإمبراطورية الرومانية على العالم المتحضر ولا سيما إقليمه الشرق وفيه سوريا وفلسطين وآسيا الصغرى . ولم تكن هذه البلاد الرومانية أشلاء لجسم عديم الحياة بل كانت تؤلف وحدة جغرافية اقتصادية سياسية متماسكة الأطراف . وحسبنا دليلاً على انتظامها في تلك الوحدة الحية ما بقي إلى يومنا من شبكات الطرق الرومانية التي كانت تجتاز العالم المتمدد منتهية إلى روما قلبه النابض . فلم تكن الكنيسة الشرقية منعزلة عن الغرب ، بل ظلت متصلة به أوثق اتصال توفد إليه أعلامها وتبادل بأسباب الحضارة . فقد انتشرت التجارة بين مختلف الأقطار ، وكانت الجيوش الرومانية تحتل حواضر البلاد الشرقية ، والموظفون الرومانيون يتقاطرون إليها يزودونها بالنظم الاقتصادية والسياسية . فلا عجب أن تتأثر الكنيسة الشرقية بتلك النظم وما كسبها من الحزم والدقة .

وهناك عامل آخر جدير بالاعتبار ، هو البيئة اليونانية التي درجت فيها الكنيسة الشرقية . وقد أفرد الأستاذ فستجيير Festugière في تحليل

هذه البيئة ومقارنة روحها بالنفسية الجديدة صفحات ممتعة تجلو سر الحقنة الممتازة من تاريخ الثقافة العامة . وفي الواقع أن إسكندر الكبير ضرب بسهم وافر في خلق روح شاملة تعلو الفروق الجنسية والنزعات القومية ، روح وئام وإخاء انتشرت في القرون الثلاثة السابقة لعهد المسيح وسميت بالهلنية hellénisme لما يطبعها من الثقافة اليونانية . وإذا شئنا إجمال خصائصها بكلمات معدودة قلنا إن قوامها تحقيق المثل الأعلى للإنسان من حيث هو إنسان في حمى النظام الذي تصطنعه المدينة اليونانية : ولا يخفى أن الشخص والمدينة كانا محوري الهلنية . ولا يتسع المقام هنا للإفاضة في تحليلها . فنجتزئ بالإشارة إلى أن المسيحية على العموم والكنيسة الشرقية على الخصوص قد تلتقت هذا التراث القديم وأفرغته في قالب جديد أو نفتت فيه روحاً جديدة هي رسالة المسيح الفائقة الطبيعة . وقد غرّ هذا الاصطباغ بالهلنية بعض الباحثين فتوهّموا أن الثقافة المسيحية مجرد طور من أطوار الثقافة اليونانية ، ولا سيما من الناحية الفلسفية . ولا يخلو هذا الحكم من تحيف لأصلية الرسالة المسيحية وتقوّمها في جوهرها على كل ما سبقها من المبادئ النظرية . غير أنه يجب الاعتراف بالآثر اليوناني في الكنيسة الشرقية بل في الكنيسة جمعاء . وفي الحق أن المدن التي طافها الرسل لنشر الرسالة الجديدة كانت مدناً يونانية ولغة التخاطب والفكر كانت اليونانية . وقد ظل التعبير بهذه اللغة شائعاً حتى أوائل القرن الثالث ، وكان جميع آباء الكنيسة الأولين حتى أكليمنضس الروماني Clement de Rome يكتبون بها . فلا يغيب ذلك عن ذهننا حين ننظر إلى كنيسة الإسكندرية في القرنين الثالث والرابع بل إلى بعض الكنائس الشرقية في أيامنا هذه وما يتخلل أدعيتها من العبارات اليونانية .

ويجمل التنويه في هذا المقام بأمرين : أولاً ، ما عانتها الكنيسة الشرقية كشقيقتها الكنيسة العربية من ألوان الاضطهاد في نشأتها الأولى إذ كانت الوثنية في عنفوانها . ولئن تأتى للمسيحية أن تخلع الأصنام من معابدها وتبث الروح الجديد في مجتمع يدين بأديان من طقوسها ما يندى لها الجبين فلم يتم لها هذا النصر إلا بما سفلك شهداؤها من دمائهم في كل بقعة من الإمبراطورية الرومانية . وكان للشرق في هذا الاستشهاد نصيب مجيد : ثانياً ، أن الرسالة المسيحية لم تظهر على صورة فلسفة نظرية لا يدركها إلا الخاصة من أعلام الفكر

بل كانت موجهة إلى عامة الشعب من جهلاء وبؤساء، تبعث في قلوبهم النور مع الرجاء . ولا أدل على تأثيرها في تلك النفوس الساذجة من رسائل القديس بولس ولا سيما رسائله إلى أهل كورنتيا .

ذلك شأن الكنيسة الشرقية من حيث نشأتها . أما نموها وانتشارها على سواحل البحر المتوسط فصحة مجيدة من تاريخ الفكر في الشرق الأدنى . كانت الكنيسة الشرقية حلقة الاتصال بين التعاليم المسيحية والثقافة القديمة من يونانية ولايتينية . وقد تركزت هذه الحركة الفكرية والدينية معاً في بعض مراكز هامة ، أخذ كل منها يوجه الفكر وفقاً لمزاياه الاقليمية والتاريخية . فأولى الكنائس شأنًا من حيث النظر في مضمون الوحي والرسالة المسيحية هي دون مرآة كنيسة الإسكندرية . ولا غرو فقد كان للإسكندرية قبل المسيح تاريخ مجيد من الناحية الدينية نفسها ؛ إذ تلاقى فيها الوحي الإلهي والحكمة اليونانية بأعمال المثقفين من اليهود ولا سيما فيلون الإسكندري . والواقع أن ترجمة العهد القديم إلى اليونانية ومحاولة شرحها شرحاً رمزياً على نمط التفسير اليونانية القديمة مما أنهج السبيل إلى قبول المسيحية في معشر المثقفين . وتاريخ مدرسة الاسكندرية القديمة أشهر من أن يحتاج إلى التعريف . فلا يخفى أن الإسكندرية كانت في القرنين السابقين للمسيح المركز الحقيقي للثقافة العامة في البلاد المتعدنة . أما ما يخلق بنا الإشارة إليه فهو أن الإسكندرية أصبحت أيضاً في القرون الأولى بعد المسيح مركزاً هاماً للتفكير الديني . ولا نغنى الفلسفة الأفلاطونية الجديدة فحسب ، بل كذلك تعاليم كنيسة الإسكندرية والجامعة Didascalée التي أنشأها أكليمنضس الإسكندري ، وكان نبراسها أورجينس Origène . وقد بلغت أوج المجد في القرنين الرابع والخامس على عهد القديس أثناسيوس Athanase . وكيرلس Cyrille . فإحرانا أن نتعمق تاريخنا الثقافي والديني في هذه الحقبه وهي حافلة بمفكرين ، مجددين ذوى رأى وإقدام يقدرون الحق قدره ويرفضون الاضطهاد في سبيل الدفاع عن عقائدهم مضحين بحياتهم إخلاصاً لايمانهم . فمن ذا الذى يتبّع القديس أثناسيوس مثلاً في نضاله عن العقيدة التي قررها مجمع نيقية Nicée ولا يأخذ العجب .

لقد ذاع صيت الإسكندرية بشهادتها وعلمائها ، وتمجدت الكنيسة المصرية

قاطبة برهبانها وأديارها . فهناك القديس أنطونيوس الشهير ، وهناك مئات بل ألوف من النساك الذين ملأوا الديار المصرية صوامع تفوق الحصر كانت معينا لا ينضب للحياة الروحية الحقبة . ولقد أثرت هذه الروح الدينية المصرية في النصرانية بأمرها ؛ إذ تلقت المسيحية عن أممتهم « آباء البرية » طريقة خاصة للتأمل والتعبد والتنسك مازالت مثالا يحتذى . وما الأديرة القائمة في مصر حتى الآن إلا آثار لما كانت عليه الحياة الروحية في الكنيسة المصرية طيلة القرون الستة الأولى . وعلى الكنيسة القبطية اليوم ، وهي وريثة كنيسة الإسكندرية ، إحياء هذا المجد ورده غرة في جبينها .

وإذا انتقلنا إلى سورية ألفينا مركزاً آخر للكنيسة الشرقية في مدينة أنطاكية ، تلقت كالاكندرية التراث اليوناني بتغذيتها بالثقافة اليونانية . وقد اتخذها أباطرة الرومان مقراً لهم حيناً بعد حين . وفي هذه الحاضرة بدأ المسيحيون نشر دعوتهم بين الأمم غير الإسرائيلية ، وفيها لقبوا لأول مرة بلقب « أتباع المسيح » christianoi . وقد طارت شهرة أنطاكية لإقامة القديس بطرس زعيم الحوارين فيها قبل انتقاله إلى روما حيث استشهد . وامتازت أنطاكية من الجهة الفكرية بصبغتها الوضعية ؛ فكانت أشد ميلاً إلى التعليم الأرسطي . فبينما كانت الاسكندرية متشربة بروح الأفلاطونية ، نازعة إلى التفسير الرمزي ، تمسكت أنطاكية بالتأويل الحرفي الأقرب إلى النص ، وأنعمت النظر في إنسانية المسيح وميزاتها البشرية على نقبض الاسكندرية ومدرستها اللاهوتية . وهذا التباين في الاتجاه العقلي من الأسباب التي أدت إلى الخلاف الذي نشب بين الكنيستين . وأشهر ممثل لكنيسة أنطاكية القديس يوحنا فم الذهب ، فهو أعظم خطباء القرن الرابع ؛ فقد توفّر على إلقاء المواعظ طيلة حياته الأسقفية واضطهد لصراحته في الرأي وثباته على العقيدة .

أما كنيسة أورشليم فلم تنل من الشهرة الثقافية ما نالته الاسكندرية وأنطاكية . نعم كانت أورشليم مصدر الدعوة المسيحية ، وفيها أخذ الرسل ينشرون الدعوة بين اليهود . بيد أنها لم تكن من المدن الهيلينية الأصلية لتمسكها بتقاليد اليهودية ونفورها أشد النفور من كل محاولة لصبغها بصبغة يونانية . فع ذبوع الديانة المسيحية فيها ظلت ردحا من الزمن تنو إلى اليهودية

الكنيسة المرفقة

بشيء من العطف حتى اكتمل تطورها النفساني من حيث إخلاصها للرسالة المسيحية الصرفة .

ولسورية والأصقاع المجاورة فضل آخر على الكنيسة الشرقية ، هو إغناء ثروتها الفكرية بثقافة اللغة الآرامية السريانية ، تلك الثقافة التي أنجبت أعلاماً من طراز أفرهاط وأفرام ويعقوب . والقديس أفرام هو الإمام الأكبر للكنيسة السريانية ، شرقيها وغربيها ، فسر الكتاب المقدس وألقى المواعظ ووضع الأناشيد إلى غير ذلك من الأعمال الروحية . ويقرن بذكره اسم ناسك آخر تضوّعت تقواه في الأقطار السورية هو القديس مارون أبو الطائفة المارونية .

وأخيراً نتوجه بأنظارنا إلى الكنيسة التي أصبحت بعد القرن الرابع مركز الدائرة من الكنائس الشرقية قاطبة أي كنيسة القسطنطينية . استظهر قسطنطين الكبير على أعدائه فاعتنق الدين المسيحي ، وشاء أن تكون روما رأس المسيحية . فغادرها ليؤسس مدينة جديدة تصبح رمزاً للإمبراطورية الحديثة . فبنى القسطنطينية على ضفاف البوسفور ، وانتقل إليها مع حاشيته . وكان لهذا الحدث خطورته في تاريخ الكنيسة الشرقية ، إذ تحولت به نقطة الارتكاز الثقافية من الغرب إلى الشرق . كان قسطنطين يحاول أن يفصل الشؤون الروحية عن الشؤون المدنية على ما يقتضيه المذهب المسيحي . ولكن السلطة المدنية أخذت من بعده تفتت على حقوق السلطة الروحية مما أزل أحياناً الكنيسة ورؤسائها منزلة التابع للإمبراطور البيزنطي ، فأدى هذا الاغتصاب إلى اعتقاد أن الدين والجنسية قد توحدوا ، فعانت الكنيسة الشرقية — ولا تزال بعض أقسامها تعاني إلى اليوم — صعباً حمة من جراء هذا الاعتقاد الفاسد .

أصبحت القسطنطينية أعظم مدينة في الإمبراطورية ودعيت روما الثانية . فكما أصبحت خليفتها من الوجهة السياسية ، حاولت شيئاً فشيئاً أن تصبح أيضاً خليفتها أو على الأقل نظيرتها من الوجهة الروحية ، فوفقت في ذلك بعض التوفيق إذ أصبحت في القرن الخامس إحدى البطاريكات الشرقية الأربع (وهي أورشليم وأنطاكية والإسكندرية والقسطنطينية) .

ولا بد من الإشارة في هذا الصدد إلى النزاع الذي شجر بين الكنيسة الشرقية

الكنيسة الشرقية

والكنيسة الغربية في القرن التاسع وأدى إلى انفصال الجزء الأكبر من الكنيسة الشرقية عن الكنيسة الغربية لأسباب لاهوتية في معظمها — منها الخلاف على الإمامة الدينية التي أنكرها «الأرثوذكس» على بطريرك روماني البابا. وعلى كل حال يجب الاعتراف بجلال الثقافة البيزنطية، وكان مصدرها كنيسة القسطنطينية. فقد عاشت هذه الكنيسة في كنف الإمبراطورية أحد عشر قرناً (من القرن الرابع إلى القرن الخامس عشر) بثت فيها روح حضارة مكيمة، لها مزاياها الفنية وخصائصها الأدبية والروحية. فهناك كنائس من الطراز البيزنطي قد انتشرت في سورية وفلسطين ومصر. وهناك أدب بيزنطي متشعب الأطراف، حافل بألوان الفكر. وهناك تصوير بيزنطي تزيه الروح الدينية البيزنطية. وهناك شرع محكم الوضع من وحى بيزنطي يرقى عهده إلى جوستينيان. وهناك موسيقا بيزنطية تتجلى إلى اليوم في أناشيد القداس وسائر الترانيم الكنسية، وهناك على الأخص كنيسة شرقية بين ظهرائها تعد سليله الكنيسة البيزنطية. وقد احتفظت بلقب «الروم» لا تمسك منها باللغة اليونانية — فكثير من الصلوات الآن تتلى بالعربية — ولكن إشارة إلى مصدرها واتصال طقسها وروحيتها بالكنيسة البيزنطية. إنه، والحق يقال، مما يثير العجب أن نرى في القرن العشرين كنيسة مثل كنيسة «الروم» قد أصبحت عربية من حيث اللغة والمشارب والعقلية وهي تحتفظ مع ذلك في غير فائقة بطقس مجيد عريق متشعب بالشرقية البيزنطية يردد في نفث ألعانة شعور الملايين من المؤمنين الذين استوطنوا الإسكندرية أو القسطنطينية أو ضفاف العاصي أو ربوع لبنان...

هذه لمحة سريعة لم تعرض فيها لاتصال الكنائس الشرقية بالعرب الفاتحين أو لنشاطها في محيط الخلافة الإسلامية. وكان بودنا لو يتسع المجال للإفاضة في الحديث عن حالة الكنيسة الشرقية عند الفتح الإسلامي في الشام ومصر، وعن آثار الكثيرين من أبنائها في عصر الأمويين والعباسيين، ولا سيما من نقلوا العلوم اليونانية إلى السريانية والعربية، وتوفروا على الأبحاث التاريخية. وخير ما نحتتم به هذا العرض الموجز أن الكنيسة ولدت ونمت في محيط روماني، واستوحت الثقافة اليونانية وارتوت من منهل إسرائيل مع اهتدائها بالنور

الكنيسة الشرقية

الذي تشعه رسالة المسيح الفائقة الطبيعة . فهي في قسميها الشرق والغربي كنيسة واحدة كُنْتُ إلى أصل واحد وتستمد الحياة من مصدر واحد .
على أن كنيسة الشرق الأوسط صارت عربية بترعرعها في بلاد عربية . وهي فوق تشعبها بالروح الشرقية والعقلية الشرقية مصرية في مصر ولبنانية في لبنان وسورية في سورية وفلسطينية في فلسطين ، ومن ثم كانت الوسيط الطبيعي للتفاهم بين هذه الأقطار الشرقية والبلاد الغربية على اختلاف ما يفرق الشرق والغرب من أساليب التفكير .

الأب فنواي